الفصل الثاني

المسير نحو البحر

obeikandl.com

obeikandl.com

لقد كان هتلر الرجل الوحيد الذي يستطيع اختراق حياد بلجيكا وهولندا، وبلجيكا لن تطلب العون من الحلفاء إلا إذا هوجمت، لذلك بقي زمام المبادرة العسكرية في يد هتلر الذي وجه ضربته في اليوم العاشر من شهر آيار، وانتقلت الجيوش الفرنسية والبريطانية من وراء خطوطها إلى بلجيكا لمحاولة إنقاذها، بدلاً من البقاء عند خطوط الدفاع المحصنة، وقد كانت هذه المحاولة حسب خطة رسمها الجنرال غاملان والملقبة بالخطة «د»، وكان الفرنسيون قد تركوا نقطة الدفاع المقابلة للإردين، دون دفاع قوي، فتمكنت الجيوش الألمانية من الاندفاع بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ وقسمت خط الجيوش الفرنسية، وبعد ثمان وأربعين ساعة أصبحت الجيوش الألمانية تهدد بقية الجيوش المتمركزة بالشمال قاطعة خط مواصلاتها الجنوبية وعن البحر أيضًا، وكان على القيادة العليا الفرنسية، أن تأمر جيوشها بالانسحاب فورًا وبأقصى سرعة ممكنة متحملة الخسائر البالغة في المعدات، إلا أن الجنرال غاملان لم يواجه هذه الحقيقة المخيفة، بينما كان قائد الجيوش الشمالية، بيلوتي، عاجزًا عن اتخاذ القرارات الهامة بنفسه، لذلك عمت الفوضى جميع الجيوش في الجبهة الشمالية المهددة.

وعندما شعرت هذه الجيوش بالخطر المحدق بها، تراجعت إلا أن العدو كان قد طوقها من الأيمن، فقامت بإنشاء خط دفاعي، لكنها لو بدأت هذه الجيوش بالتراجع قبل هذا الوقت الذي تراجعت فيه، لكان باستطاعتها أن تصل إلى خطها القديم فتتمكن من النجاة، لكن هذه الجيوش تأخرت وفقدت ثلاثة أيام بين أخذ ورد فاستكمل العدو حركة التطويق! ورأت وزارة الحرب في بريطانيا أن القتال الفوري في الجنوب هو الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيش البريطاني، لكن اللورد غورت، لم يوافق على هذه الفكرة وبإمكانية نجاحها فالخطة المقترحة من وزارة الحرب تقضي بإشغال العدو على عدة جبهات لتتمكن من خرق جبهة واحدة لتنفيذ خطة التراجع، وفي هذا الوقت تغيرت القيادة العليا في فرنسا وصرف الجنرال غاملان وخلفه في القيادة الجنرال ويغان، وأدى هذا التغيير في القيادة إلى التأخير ثلاثة أيام أخرى، واقترح الجنرال خطة مشابهة لخطة سلفه واضطررنا إلى قبولها مرغمين، وحاولنا بكل جهد أن ننفذها مخلصين إلى أن انقطعت طرق المواصلات أمامنا، بعد أن صد

الألمان هجماتنا الضعيفة واحتلوا أراس وانهارت الجبهة البلجيكية، وأوشك الملك ليوبولد على الاستسلام، وفقدنا كل أمل في الانسحاب إلى الجنوب، ولم يبق أمامنا إلا البحر، وفي الحال، أقام اللورد غورت رأس حسر حول دنكرك محاولاً شق طريقه بكل قوته، وكنا في هذه الأيام بحاجة إلى كل ما عرف عنا من نظام وطاعة ودقة في القيادة ...

❖ ❖ ❖

وهنا سنعرض قصة كثر الجدل حولها، فقد ذكر الجنرال هولدر رئيس أركان الجيش الألماني، أن هتلر قد تدخل في هذا الوقت شخصيًا ولأول مرة لأنه شعر بالخوف على آلياته المدرعة لأنها أصبحت في وضع خطر للغاية، فهي الآن في أرض وعرة محاطة بالأقنية ولا يمكنها التقدم بشكل سريع، وبنفس الوقت لا يمكنه احتمال أي خسارة في معداته، فهو بحاجة إليها في المرحلة الثانية من حملته، واعتقد أن سلاح الطيران سيتمكن من السيطرة ومنع التراجع والانسحاب عن طريق البحر، لذلك أرسل أوامره بوقف آلياته المدرعة وتراجعها في بعض الأماكن، وهكذا أصبح في مقدور البريطانيين الانسحاب والوصول إلى دنكرك، هذا حسب قول هولدر نفسه، وعلى كل حال فقد تمكنا من التقاط رسالة ألمانية في صباح الرابع والعشرين من آيار، تأمر بوقف الهجوم على دنكرك، ويقول هولدر أيضًا: إنه رفض التدخل في تحركات الجيوش التي كانت تحت أمرة رونشتادت والتي كانت تحمل الأوامر الصريحة بمنع العدو من التقدم والوصول إلى البحر، وقال: إنه كلما أسرع في تحقيق النصر كان أسهل فيما بعد التعويض عن الدبابات والمدرعات المفقودة.

ولم يلبث هتلر أن أصدر أمرًا بإيفاد ضابط ارتباط شخصي إلى الجبهة، ومضى الجنرال هولدر يقول:

« لم أعرف كيف اقتنع هتلر بضرورة عدم تعريض قواته المدرعة إلى الخطر ومن المرجح أن يكون كايتل قد أوحي له بهذه الأفكار عن طريق القصص التي كان يقصها عليه».

وقد صرح قادة آخرون بقصة مشابهة وأشاروا إلى أن هتلر قد أصدر أوامره هذه لأسباب سياسية، منها فسح المجال أمام إنكلترا لطلب السلام بعد الهزيمة التي لحقت بفرنسا، وقد ظهرت بعد انتهاء الحرب بعض الوثائق التي صدرت عن مقر قيادة

رونشتادت على شكل يوميات دونت في ذلك الوقت أما هذه الوثائق فتروي القصة بشكل مختلف تمامًا ! فالأوامر صدرت عند منتصف ليل الثالث والعشرين من أيار من مقر القيادة العامة، تحمل توقيع براوخيتش تذكر فيها أن الجيش الرابع سيبقى تحت قيادة رونشتادت ليقوم بالمرحلة الأخيرة من معركة التطويق ، وفي صباح اليوم التالي، عندما وصل هتلر لزيارة رونشتادت ، أخبره أن الآليات المدرعة ، التي توغلت بعيدًا قد ضعفت قوتها ، وهي بحاجة إلى فترة من التوقف لاستعادة نشاطها كي تتمكن من توجيه الضربة القاضية للعدو الذي يقاتل بضراوة ، وكان رونشتادت ينتظر هجمات شديدة من الحلفاء في الشمال والجنوب ، وهي الخطة التي اقترحها ويغان ، وقد وافق هتلر على وجوب توقف السلاح المدرع لتجهيزه للمعركة الحاسمة المقبلة ، ومع ذلك ، فقد وصل في صباح اليوم التالي الأمر من براوخيتش، القائد العام ، باستمرار تقدم المدرعات ، وهنا رفض رونشتادت الأمر الموجه إليه ، بعد أن اطمأن إلى موافقة هتلر الشخصية ، ولم ينقل هذا الأمر إلى قائد الجيش الرابع «كلوغه» بل طلب منه أن يستمر في تجميع القوات المدرعة ، وقد احتج «كلوغة» على هذا التأخير، ولكن رونشتادت لم يصدر أوامر القيادة العليا إلا في صباح يوم السادس والعشرين وأضاف أنه يجب ألا يهاجموا دنكرك بالذات ... وقد ذكرت هذه اليوميات عن احتجاج قادة الجيش الرابع على هذا التخصيص وكتب رئيس أركان حربه يقول :

«أن الوضع في الموانئ كان على الشكل التالي : فالبواخر الكبيرة كانت تقترب من الأرصفة ، وتمد الألواح الخشبية إلى الشاطئ وبسرعة عجيبة كانت أسطحة البواخر تكتظ بالرجال ، أما أسلحتهم وعتادهم الحربي فيتركونه وراءهم ، لكننا لم نكن نريد أن نرى هؤلاء الرجال أنفسهم يعودون مرة أخرى وقد تسلحوا بسلاح جديد ليقوموا بجولات جديدة ضدنا » .

ومن هذه اليوميات يتبين أن المدرعات قد توقفت بناء للأوامر التي صدرت عن رونشتادت لا عن هتلر ، ولابد أن تكون هناك وجهة نظر خاصة ، إلا أن القادة الألمان أجمعوا على أن هذه الأوامر قد أضاعت فرصة عظيمة عليهم .

❖ ❖ ❖

لم تكن القوات الألمانية تضغط بشدة على خط الدفاع البلجيكي ، ولكنها ما أن بدأت

ضغطها المتزايد حتى انهار الخط وتمكن الألمان من تحطيمه على جانبي كورثاني، التي لا تبعد عن أوستند ودنكرك أكثر من ثلاثين ميلاً، وما لبث ملك بلجيكا أن يئس من الوضع الحاضر فقرر الاستسلام.

واتخذ اللورد غورت قراره الحاسم بالتخلي عن خطة الجنرال ويغان القاضية بالزحف نحو الجنوب ونحو الشمال، وقرر بدلاً عنها بعد اقتناعه التام بأن إشراف الحكومتين البريطانية والفرنسية قد انتهى على ميدان المعركة، وكل سيطرة للقيادة الفرنسية العليا قد زالت، لذلك قرر أن يستبدل فكرة الهجوم نحو الجنوب، بسد الثغرة التي ستحدثها استسلام بلجيكا في الشمال، وأن يزحف باتجاه البحر، وهكذا أصدر أوامره إلى الفرقتين الخامسة والخمسين بوجوب الانضمام إلى اللواء البريطاني الثاني لسد الثغرة في الجبهة البلجيكية، كما نقل إلى الجنرال بلانشار الفرنسي عزمه على تغيير الخطة الأولى ووافق الجنرال وقرر الانسحاب إلى الخط الواقع وراء قناة ليز غربي ليل، وقرر إقامة رأس جسر حول دنكرك.

وفي الصباح الباكر من اليوم السادس والعشرين من شهر آيار، قام غورت وبلانشار برسم خطة الانسحاب نحو البحر، ولما كان على الجيش الفرنسي أن يقطع مسافة أطول، لذلك مهدت قوات الحملة البريطانية الطريق بينما بقيت القوات الأخرى في خطوط الدفاع في الجبهة حتى ليله الثامن والعشرين من أيار، وكان اللورد غورت يتصرف حسبما يراه مناسبًا على مسؤوليته الخاصة، إلا أننا في الوزارة كنا قد توصلنا إلى نفس النتيجة حسب المعلومات التي حصلنا عليها، لذلك أصدرنا له برقية تأييد للإجراءات التي قام بها طالبين منه التوجه إلى البحر بالاشتراك مع القوات الفرنسية والبلجيكية، ثم بدأ حشد أكبر عدد ممكن من المراكب والسفن.

وفي هذه الأثناء، استمرت عملية إقامة رؤوس الجسور حول دنكرك، كما تقرر أن يحتفظ الفرنسيون بالأماكن الواقعة بين «غريفلاين» و «بيرغ» بينما يحافظ البريطانيون على القناة عبر فيرنز إلى نيوبورت والشاطيء وتلقى اللورد غورت من الوزارة تأكيدًا للأمر الذي صدر إليه في إجلاء أكبر عدد ممكن من الرجال، وكنت قد أخبرت المسيو رينو أن هدفنا هو

سحب القوات البريطانية ، كما طلبت منه أن يصدر أوامر مماثلة ، وكانت حركة المواصلات قد أصبحت ضخمة حتى إن قائد الجيش الفرنسي الأول أصدر أمره في السابع والعشرين من أيار إلى جنوده يقول: «إن المعركة تدور الآن دون تراجع حتى خط ليز» .

أصبح الخطر يهدد فرقًا بريطانية أربعة ، بالإضافة إلى الجيش الفرنسي الأول كله ، بالعزلة والانقطاع ، وراحت (الكماشة) الألمانية تحاول الضغط بكل قوتها على جيوشنا ، وكانت هذه اللحظة من اللحظات الحاسمة التي تلعب فيها وسائل النقل الميكانيكية دورها البارز ، فما أن أصدر اللورد غورث أمره بالتراجع حتى كانت الفرق الأربع تتراجع بسرعة مذهلة في ليلة واحدة، وتمكنت بقية الفرق البريطانية من الاحتفاظ بالممر المؤدي إلى البحر بكثير من الجهد، وبعد معارك دامية تمكن العدو من إغلاق (الكماشة) بعد أن تم تأخيرها ثلاثة أيام بفضل الفرق البريطانية الثانية ، وتم إغلاق ذراعي الكماشة بصورة تشبه تلك العملية الروسية العظيمة حول ستالينغراد سنة ١٩٤٢ ، وقد تم انسحاب الجيوش البريطانية والفرنسية ، خلال هذه الفترة، وتمكنت من النجاة عدا اللواء الخامس من الجيش الفرنسي الذي فقد...

***

قبل عشرة أيام طلبت من المستر تشمبرلين درس إمكانية استمرارنا في الحرب وحدنا ، والآن ما لبثت أن عرضت الأمر بصفة رسمية على مستشارينا العسكريين ، وقد وضعت الأسئلة بطريقة تترك المجال أمام رؤساء الأركان لإبداء آرائهم بحرية تامة ، مهما كانت تلك الآراء ، وبالرغم من ثقتي التامة بأنهم سيطلبون الاستمرار في الحرب ، إلا أني وجدت من الحكمة أن أحتفظ بسجلات خطية عن مثل هذه الآراء ، كما أردت أن أؤكد للبرلمان أن آراءنا بالاستمرار في الحرب تدعمها آراء الخبراء العسكريين المحترفين . وهنا أسرد نص السؤال بحرفيته مع رد رؤساء الأركان عليه:

١ ـ لقد أطلعنا على التقرير عن «إستراتيجية بريطانيا في حال حدوث تطور معين» على ضوء المهمة التي كلفنا بها رئيس الوزراء في رسالته التالية:

« في حال عجزت فرنسا عن الاستمرار في الحرب ، وفي حال اتخذت موقف الحياد ، وفي حال احتفاظ الألمان بوضعهم الحالي واستسلام الجيش البلجيكي بعد مساعدة الحملة البريطانية على الوصول إلى البحر ، وفي حال التقدم بعروض من شأنها أن تضع بريطانيا تحت رحمة ألمانيا بسبب اقتراحات نزع السلاح ووقف القواعد البحرية عن العمل في جزر أوركني وغيرها ، فما هو الأمل في استمرار الحرب ضد ألمانيا ، وربما ضد إيطاليا أيضًا ؟ وهل سيتمكن الأسطول والسلاح الجوي ، من حمايتنا ضد غزو ألماني خطير ، وهل ستتمكن قواتنا التي سنحشدها في هذه الجزر من مقاومة الغارات الجوية عليها ، مع العلم أن هذه القوات تضم وحدات لا يبلغ عدد أفرادها العشرة آلاف ! شرط أن نأخذ بعين الاعتبار أن إطالة مدة المقاومة ستشكل خطرًا كبيرًا على ألمانيا التي ستكون منصرفة إلى السيطرة على الأجزاء التي احتلتها في أوروبا .

٢ ـ هذا وقد توصلنا إلى نتائج سنذكرها في الفقرات التالية :

٣ ـ يمكن لأسطولنا البحري أن يتعاون مع سلاحنا الجوي في الدفاع ومنع ألمانيا من القيام بهجوم كبير عن طريق البحر .

٤ ـ إذا افترضنا أن ألمانيا استطاعت أن تتفوق على قواتنا الجوية ، فنحن نعتقد أن الأسطول سيتمكن من المقاومة لفترة محدودة فقط .

٥ ـ إذا لم يتمكن أسطولنا من المقاومة ، وإذا ما تمكن العدو من التغلب على سلاحنا الجوي، وإذا حاولت ألمانيا أن تغزونا ، فلن تتمكن قواتنا الساحلية من الدفاع ومنع إنزال قوات برية على الشواطئ ، وفي هذه الحال ستكون قواتنا البرية غير قادرة على الصمود أمام غزو ألماني كبير».

٦ ـ فإذا ما تمكنت ألمانيا من إحراز تفوق جوي ، فباستطاعتها غزو بلادنا وإخضاعها عن طريق الجو فقط .

٧ ـ لن تتمكن ألمانيا من التفوق علينا في الجو ، إلا إذا تمكنت من القضاء على سلاحنا الجوي برمته ، وإذا ما تمكنت من تحطيم جميع مصانع الطائرات في كوفنتري وبرمنغهام .

٨ ـ قد تقع الغارات الجوية على مصانع الطائرات في الليل وفي النهار ، ونحن نرى أنه بإمكاننا أن نلحق بالعدو خسائر فادحة أثناء قيامه بغارات في النهار ، ومهما حاولنا فلن نتمكن من حماية جميع مصانع طائراتنا خاصة أثناء غارات العدو الليلية ، فعلينا أن نحول بينه وبين تنفيذ أهدافه قدر إمكاننا » .

٩ ـ إن نجاح العمليات الجوية في القضاء على صناعة الطائرات ، لا تعتمد على القنابل والتخريب الذي ينجم عنها ، بل يعتمد أيضًا على التأثير المعنوي على العمال الذين سيتوقف عليهم وحدهم الرغبة في الاستمرار في العمل بالرغم من الاضطرابات والمخاوف » .

١٠ ـ إذا استمر العدو في غاراته الليلية على مصانع طائراتنا ، فقد ينجح في إلحاق الأضرار المادية والمعنوية بنا ، وسيتوقف العمل في مصانعنا على الفور .

١١ ـ علينا أن نتأكد من أن الألمان متفوقون علينا في عدد الطائرات بنسبة أربعة إلى واحد، بالإضافة إلى أن مصانع طائراتهم أكثر توزيعًا وقوة من مصانعنا .

١٢ ـ ومن ناحية ثانية ، فبإمكاننا نحن أيضًا توجيه ضربات قوية على مصانع العدو ، ما دامت لدينا قوة كبيرة من قاذفات القنابل ، التي ستلحق بغاراتها على مصانعهم الكثير من الأضرار المادية والمعنوية وتوقف قسم كبير منها عن العمل .

١٣ ـ وبالإجمال ، تبدو ألمانيا لأول وهلة أنها تملك زمام الأمور بيدها ، ولكن النتيجة تتوقف على مقدرة جنودنا وسكاننا المدنيين على الصمود ، بفضل ما نتمتع به من روح معنوية عالية تمكننا من موازاة ألمانيا التي تبدو أنها متفوقة علينا .

لقد كتب هذا التقرير في أحلك الأوقات ، وقبل عملية إنقاذ دنكرك وقد وقع على التقرير رؤساء أركان الحرب الثلاثة ، وهم : «نيووال ـ باوند ـ وايرونسايد ، ونوابهم الثلاثة : ديل ـ فيليبس وبيرس ، وعندما قرأت هذا التقرير بعد سنوات ، أريد أن أقر على ما كان يحتويه من خطورة وغموض ، إلا أننا كنا قد حزمنا أمرنا وقررنا المضي يدا واحدة وقلبًا واحدًا .

وقد أصدرنا التعليمات العامة التالية :

سري للغاية :

« إن من دواعي امتنان رئيس الوزراء ، في هذه الأيام السوداء ، أن يرى زملاؤه الوزراء وهم محتفظون بروحهم المعنوية العالية ، خلال الفترات الصعبة التي يعيشونها ، وعلينا ألا نقلل من أهمية هذه الأحداث وخطورتها وحراجتها ، وعلينا أن نبرهن عن عزمنا وتصميمنا الأكيدين على المضي في هذه الحرب ، حتى نحطم إرادة العدو الراغب في السيطرة على أوروبا وإخضاعها لنفوذه وسيطرته .

وعلينا ألا نتسامح بالفكرة القائلة: إن فرنسا ستقوم بعقد صلح منفرد مع ألمانيا، ولكن مهما حدث على هذه القارة الأوروبية فعلينا ألا نشك في واجباتنا ، وسنستخدم كل ما نملكه من قوة للدفاع عن بلادنا وإمبراطوريتنا وقضيتنا » .

❖ ❖ ❖

وفي صباح اليوم الثامن والعشرين استسلمت بلجيكا ، وقد وصلت الأنباء إلى اللورد غورث قبيل الاستسلام بساعة واحدة ، وكان هذا الانهيار متوقعًا قبل ثلاثة أيام ، وقد استطاعت القوات البريطانية أن تسد هذه الثغرة التي كان متوقعًا حدوثها ، واستطاعت قوات الحملة البريطانية الجلاء، كما تمكن نصف الجيش الفرنسي الأول من الوصول إلى دنكرك سالمًا حيث تم نقل رجاله بسلام ، لكن خمس فرق لم يكتب لها النجاة بعد أن أطبقت عليها الكماشة الألمانية ، إلا أنهم صمدوا أمام الضغط الهائل واستبسلوا في القتال حتى مساء الحادي والثلاثين من أيار ، واضطروا إلى الاستسلام بعد أن نفد ما لديهم من غذاء وعتاد ، وهكذا استسلم نحو من خمسين ألف جندي فرنسي للأعداء ، وقد تمكن هؤلاء من الصمود بقيادة الجنرال مولنييه البطل وأتاحوا بذلك الفرصة أمام رفاقهم للنجاة عن طريق دنكرك .

وقد مررت بمحنة قاسية خلال الأيام المخيفة ، ولم أكن أجرؤ على التدخل ، إذ أن التدخل سيؤدي إلى زيادة الخطر على الرجال بدلاً من تخفيفه عنهم ، ولا شك أن التزامنا المخلص لخطة الجنرال ويغان قد زادت من خطورة الموقف ، إلا أن قرار اللورد غورث .

الذي وافقنا عليه وأيدناه، والقاضي بالزحف نحو البحر قد نفذ بدقة متناهية بفضل عبقرية القائد ومساعدوه، وسيبقى هذا الحادث كأسطورة رائعة من أساطير البطولة في تاريخ بريطانيا العسكري.

❖ ❖ ❖

obeikandl.com

obeikandl.com